موافقتكم جزاء لبركم بامثاله واعتناء بما يقضي لولائكم بدوامه واتصاله بحول الله تعالى وقوته وهو سبحانهُ ييسرنا لنيل الحسنى والزيادة من فضله . ويأخذ بنا في ديننا ودنيانا على اقوم سبله . ويجعلنا واياكم بما يمنحنا من التوفيق في اول رعيل من حزب الحق واهلهُ بمنه وكرمه لا رب سواه

كتب في الثامن عشر من شهر ربيع الاول عام ثمانية وار بعين وستمائة

[عنوان الرسالة :]

الى مطاع ملوك النصرانيَّة ومعظم عظماء الامة الروميَّة وقيم الملة المسيحيَّة ووارث رياستها الدينيَّة البابه « اينه سانس اش » انار الله تعالى بصيرته بالتوفيق والارشاد ومنحهُ بتقواه سعادة الحيا والمعاد

يمين العلي

رواية تاريخية للاب س . ت اليسوعيّ (تتمَّة)

الفصل الخامس عشر

في اكدار الحاضرة وسرات الآخرة

غابت شمس ذاك اليوم المعدود وارخى الليل سدولهُ على بيروت . وبينما كانت اصوات الشعب المائج تملأ انحاء المدينة ضجيجاً كان سكوت الموت يخيّم على ملعب بيروت فترى في ساحتهِ خِلطاً من العظام المهشَّمة واللحمان المتقطعة التي لا تُعرف لها صورة . وعلى مقربة منها كانت الوحوش الشبعى رابضةً تهضمُ مآكلها البشريَّة ريثما تقوم في غدٍ فتغتذي من بقاياها

وبعد وهنٍ من الليل طلع القمر فانار باشعَّتهِ الفضيَّة تلك الجثث وكان هناك بعض النصارى اتوا ليصلُّوا لاجل اخوانهم المتوفين بالرب فخيّل لهم انَّ البدر سجّى الموتى باكفان من النور وان ملائكة السماء انحدرت لتجعل فوق هامهم اكاليل الظفر

امَّا دار الورود فانَّها كانت عادت الى افراحها السابقة برجوع صموئيل ربّها . فقضى فيها الشيخ المسكين اياماً من الراحة لم يعهدها منذ نحو عشرة اشهر . وكان يزيد فرحهُ

أنهُ يرى في قلب ابنتهِ من العواطف الليّنة وشواعر البرّ والتُّقَى والتفاني في خدمتهِ ما لم يختبرهُ سابقًا وهو لا يدري انَّ تنصُّرها كان اشر بهـا روحًا جديدًا وغرس في قلبها اسمى الفضائل

وكان راسيوس لا يكاد يفارق الشيخ ويتسابق مع يهوديت في خدمتهِ والقيـام بامرهِ فيقضي بقربه ساعات النهار وهو يسمع من فمهِ اخبارهُ الفاجعة التي جرت لهُ في الاشهر الاخيرة اذ كان مع اليهود المحاصَرين في المدينة المقدَّسـة وكيف نجا مرارًا من الموت ووقع اخيرًا في يد الرومان وكان يخبر ذلك بصوت اجشّ تقطعهُ نوبات السُّعال وضيق النَّفَس. وكان لا يزال يردّد آيات الشكر اليهِ تعـالى اذ اعادهُ سالمًا الى دارهِ. ولكن كان يسوؤهُ ان لا يرى مع ابنتهِ العزيزة ولدهُ يوسف وهو يتعجَّب كيف لم يسأل هذا عنهُ ولم يهتمّ بامرهِ وترك شقيقتهُ وحدَها بلا مساعد ولا سلوان. على انهُ كان يفرح اذ يرى بدلًا من ابنهِ ابنًا آخر اعزّ وابرّ وهو الضابط راسيوس الذي ارسلهُ الله كملاك لينجيهُ من مخالب الموت. وكان شتاء تلك السنة لطيفًا فكانت يهوديت وراسيوس يؤمّلان ان صموئيل يعود الى العافية تمامًا . بيد انَّ احكام الله كثيرًا تخالف احكام البشر

وذلك أنَّ صموئيل بعد خروجهِ من الاسر كان اصاب اوَّلًا بعض الراحة لكنَّهُ ما علق ان انتكس وتسلَّطت عليهِ حُمَّى لم تكد تفارقهُ. فضاعفت يهوديت اهتمامها بوالدها واستدعت نطس الاطبَّاء من بيروت وجوارهـا الَّا انَّ ادويتهم لم تنجع في جسم انتهكت قواهُ اصناف الاوجاع. ولمَّا ارادت الفتاة التقيَّة ان تقف على حقيقة الامر اشار الى السماء احدهم وكان نصرانيًا يدعى لوقيوس ففهمت يهوديت انَّ حبَّها لا يحفظ لابيها حياتهُ

وبقيت مع ذلك عنـد فراش الشيخ تخدمهُ خدمةً نصوحًا وهي تلطف اوجاعهُ وتعزّيهِ وتبشّ لهُ . وكانت مع ذلك تفكّر في خلاص نفسهِ اكثر منها في جسـدهِ فتتوسَّل الى فادي العالم ان لا يسمح بموتهِ قبل ان يصطبغ بمياه المعموديَّة

واذ كانت يومًا تمرّض اباها بتفانٍ عجيب حاك نظرُها في قلب والدها فسألها كيف يمكنهُ ان يجازيها عن برّها وعظم حبّها. فنظرت اليهِ يهوديت برقَّة وقالت :

« أفليس من الواجب على الولد ان يضحّي نفسهُ في علَّة وجودهِ. فاعلم يا ابتاه انَّ

اعظم جزاء انتظرهُ منك بركتك الوالديَّة. ثمَّ اطلب اليك ان تسمح لي بان ادين بالنصرانيَّة بعد ما تمَّت اقوال يسوع الناصريّ في مدينتنا اورشليم وخابت آمال اسرائيل»

قالت هذا وسكتت لترى مفعول كلامها في ابيها. واذا بصموئيل رفع بعينيهِ الى السماء كأنَّهُ يطلب مشورةً من الله فيما يجيب ابنتهُ. وبعد قليل التفت الى ابنتهِ قائلًا:

« اني اباركِكِ يا ابنـةً عزيزة من صميم الفؤاد. وان وجدتِ في النصرانيَّة ما يضمن لكِ سعادة القلب وراحة الضمير فاني لستُ اشاء ان احول دون رغائبكِ »

وقعت هذه الاقوال في قلب يهوديت كالنـدى على العشب فاثلجت صدرها وعلمت ان الله مهَّد لها الطريق لخلاص والدها. فاردفت والدموع تترقرق في عينيها:

« لا اخفي عليكَ الحقيقة يا ابتاه فاني نصرانيَّة منذ شهرين. وان كنتَ وجدتَ لابنتك بعض الفضائل التي لم تعهدهـا لها فإنَّ ذلك الَّا ثمرة ديني الجديد الذي جرَّدني عن اخلاقي السيئة وجعلني امةً للمسيح. والآن ابتِ العزيز ألا توليني نعمـةً أخرى اعدُّها لو نلتُها من اكبر نعم الله اليَّ . . . ألا تريد ان ترافق ابنتك في سعادتها وتؤمن بذاك الذي دعا امَّتنا الى الخلاص وتنبَّأت عن مجيئهِ انبياؤنا . . . آه ما اكبر ما يكون فرحي لو اقررتَ معي بانَّ يسوع الناصري هو المسيح الحقيقي . . . »

ولم يمكن ليهوديت ان تزيد على هذا شيئًا الَّا انَّ الدموع بلَّت وجنتيهـا فعرف صموئيل انَّ ابنتهُ وجدت بتنصُّرها نعيم البال وراحة القلب فقال لها:

« كفِّي دموعكِ يا عزيزتي فان شاء الله بعد شفائي اذهب وايَّاكِ الى قبرس فتحضرين هناك عماد والدكِ . . . »

لم تكن يهوديت لتظنَّ ان كلامها يعمل في قلب والدها هذا العمل مع ما كانت تعرف لهُ من التعصُّب لدينهِ وبغضهِ لشيعة الجليليِّين الَّا انَّ ما شاهدهُ من انجاز نبوَّة المسيح في سقوط اورشليم كان قطع حبل رجائهِ في ملك اسرائيل ووتَّر الطريق في قلبهِ للايمان . . . ولكن ما العمل وابوها لا يعرف انَّ زمانهُ قصير وموتهُ وشيك

فاخذت الفتاة تترصَّد الفرصة لتقنع اباها بتعجيل عمادهِ. فما لبثت ان وجدتهـا فانتهزتها. وذلك انَّها كانت وضعت نسخةً من انجيل متى المكتوب بالعبرانيَّة قبل ٢٥ سنة على منضدةٍ قريبة من فراش والدها فاذا رأتهُ غفا قليلًا اخذت الكتاب فقرأت منهُ بعض الآيات

فاذ كان احد ايّام كانون الاوّل وتحسّن نوعاً حال صموئيل سأل ابنتهُ عن الكتاب وفحواهُ فقالت من ساعتها: « دعني يا ابتِ اقرأ لك منهُ فصولًا فاني لتأكدة انك تجد في استماعهِ لذّةً وانشراح بالٍ ؟. ولكن لا اقراهُ حتى يخرج صديقنا راسيوس لأنهُ وثنيّ ومدار الكتاب على اسرائيل ومسيحهِ . . . »

قالت هذا وهي تتبسّم ولا تعلم ما جرى لراسيوس مع النصارى . فزجرها الضابط بلطف وقال: « اتكونين انتِ ايضاً مسيحيّة » ؟

قالت: نعم واملي انهُ لا يمرُّ علينا يوم تذكار ميلاد المسيح في ٢٥ ك حتى يعتمد ابي ويا ليتك يا صاح كنت تعرف النصرانيّة لصرت . . . »

فقاطع راسيوس كلام يهوديت قائلًا: وما ادراكِ اني لا اعرفها ؟

— وكيف عرفتَها وانت جندي لا تفكر الّا في الحروب ؟

— ساء ظنُّكِ ؟ فاني وان لم اكن مسيحيًّا اعرف النصارى حقّ المعرفة

فتعجّبت يهوديت من قولهِ وسألتهُ كيف اتّصل الى ذلكِ . فاخبرها راسيوس امام ابيها ما جرى لهُ في صيداء وكيف اجتمع بالنصارى وعمل في قلبهِ ما شاهدهُ فيهم من الفضائل . ثم قصَّ عليها حكايتهُ مع لاونطيوس النصرانيّ وكيف ارتبط مع هذا الضابط الهمام برُبط الصداقة والحبّ ثم اختبر فضلهُ السامي لمّا قام بتمريضهِ ولولاهُ لما اصاب الشفاء من جراحهِ

فسُرَّت يهوديت بهذا الخبر ايَّ سرور لكنَّ فكرها وقتئذٍ كان مُنصرفاً الى والدها لئلّا تفوتهُ ساعة النعمة فقالت : ترى يا ابتِ ان الله سهّل لك الامور . فانَّ ابنتك نصرانيّة والذي خلّصك من الموت امتحن النصارى وعرف فضلهم فها انني وايّاهُ نتعاقب في تعليمك حتى اذا حان يوم العيد تصطبغ بمياه العماد

فأثّر كل ذلك في قلب صموئيل ولم يستطع ان يردّ امل ابنتهِ خائباً فقال: « ليكن كما تشائين »

فكانت يهوديت كلّما ترى والدها مرتاحاً تشرح لهُ اسرار الديانة وتقرأ لهُ فصولًا من الانجيل بينما كان راسيوس يسمع لكلامها العذب ويؤيدهُ بقولهِ « انهُ لا يظنّ بانَّ على الارض ديناً كالنصرانيّة يجرّد المرء عن الامور الزائلة ويحملهُ على ممارسة اعظم الفضائل كحبّ الاعداء والتواضع والكفران بالنفس مع ما في هذه الديانة من

الاسرار المعزّية والعقائد الموافقة للعقل الصائب »

وكان صموئيل كالارض العطشى يتقبّل هذه التعاليم برغبة وقنوت وكانَ الروح القدس قد مسَّ قلبهُ واثار عقلهُ فتعلّم باقلّ من اسبوع كلَّ ما يجب على المسيحيّ ان يعرفهُ من دينهِ . ولمَّا خاف أن تفوتهُ نعمة العماد اذا اخّرها الى عيد ميلاد الرب جعل يلحُّ على ابنتهِ لكي تأتي لهُ بالاسقف كوارتوس لينصّرهُ باقرب وقت

فاجابت يهوديت الى سؤلهِ بطيب الخاطر وارسلت الى الاسقف تستقدمهُ لهذه المهنة الشريفة . فلبّى الى دعائها وفي ليلة اليوم الخامس عشر من كانون الاوّل سال ماء الخلاص على راس والدها وقلبهُ يطفح فرحاً واراد ان يتسمّى بسمعان ذكرًا للكاهن الذي وُعد بمعاينة المسيح

وكان راسيوس حضر هذه الرتبة فاثّرت في قلبهِ وزادتهُ ميلًا الى النصرانيّة الّا انَّ ساعة تنصُّرهِ لم تدقّ بعد

ومضى على صموئيل ثلاثة ايّام وهو لا يملّ من الشكر لله على ما اولاهُ من نعمة التنصُّر فيكرر قول سميّهِ سمعان الشيخ : « الآن ارسل يا رب عبدك بسلام لانَّ عينيَّ عاينتا خلاصك » فكان جسمهُ يزيد نحولًا وقواهُ تنحلّ شيئاً فشيئاً حتى لحظت يهوديت انَّ اجلهُ قد دنا وكان الطبيب لوقيوس اعلمها بانهُ لا يعيش طويلًا

فعرضت على والدها ان تأتي لهُ بالاسقف ثانيةً ليصلّي عليهِ ويطلب لهُ الشفاء من دائهِ بمسحة المرضى . ففهم سمعان انَّ آخرتهُ قريبة فسُرَّ بذلك واعدَّ نفسهُ لقبول الاسرار

فلمَّا كان المساء اجتمع كلّ اهل الدار من خدم وعبيد وحضروا هذه الرتبة بخشوع عظيم . فدخل كوارتوس وزوّد الشيخ بالاسرار المقدّسة وقوّاهُ بدهن المرضى واعدَّهُ لابديّتهِ . وكان الحضور يبكون ويصلّون معاً . فلمَّا انجز الاسقف عملهُ شكرهُ سمعان واهداهُ ملكاً واسعاً ليقيم فيهِ كنيسة لنصارى بيروت . ثم التفت الى عبيدهِ وقال لهم : اني اتأسّف على ما فرط مني سابقاً في حقكم فاغفروا لي ومنذ الآن لم أعُد اعتبركم كعبيد بل كاصدقاء فان شئتم اذهبوا احرارًا في سبيلكم . وغاية ما اتمنّى ان تؤمنوا بايماني »

ثم انتصب على فراشهِ واشار الى ابنتهِ يهوديت والى راسيوس الضابط ان يقتربا فلمَّا دَنَوا منهُ جعل يد يهوديت في يد راسيوس قائلًا : « كان لي ابنٌ الّا انهُ اهملني وجحد نعمتي ولم يبالِ لاختهِ فقمْ انت يا راسيوس عزيزي مقامهُ وهذه ابنتي وحشيشة

قلبي فاني اقرنك بها واباركهما جميعاً » ثم رفع ذراعهُ على الزوجين وباركهما بينما كانا منحنيين تحت يدهِ تخنقهما العبرات

وما كاد يتم بركتهُ حتى سقط على فراشهِ واغمض عينيهِ فظنَّ الحضور انَّهُ بارح الحيـاة . . . لكنَّهُ بعد قليل عاد وفتحهما كأنَّهُ يرى رؤيا سماويَّة وصرخ: « هلمَّ يا ربّ . . . وارحم عبدك . . . اغفر لشعبنا . . . اغفرْ لولدي . . . يسوع . . . مريم اقبلا روحي » قال هذا وفاضت نفسهُ البارَّة على انَّ ثغرهُ بقي باسماً يدلُّ على سعادة نفسهِ

فبقيت يهوديت وزوجها راسيوس حيناً يصلّيان ويقبـلان يدي الشيخ الميت الَّا انَّ موتهُ الصالح كان لهما اقوى تعزية فخيل لهما انه سبقهما الى دار البقاء ليحرسهما ويشفع بهما

*

قضت يهوديت ايَّام حدادها منفردةً عن العالم منقطعةً الى زوجها الذي جمعهـا وايَّاهُ قول والدها الاخير . الَّا انَّها منذ وفاة والدها كانت اشواقها الى السماء اكثر منها الى الارض كانَّ الله لم يحفظها بين تلك الاوجاع المتوالية الَّا لخلاص علَّة وجودها . امَّا راسيوس فانهُ يوم حظي بابنة صموئيل احسَّ كأنهُ اصـاب كنزًا عظيماً . بل كان يرى في زوجتهِ ملاكًا جعلهُ الله حيناً في ملكهِ ليغني نفسهُ بالمواهب الالهيَّة . وكانَّ بقلبهِ كان يناجيهِ بانَّ يهوديت لا تبقى لهُ زمناً طويلًا وانَّها ثمرة حان قطافها لدار الخلود

وفي صباح احد ايَّام شباط اتى البريد بكتاب ليهوديت فعرفت من عنوانهِ انَّهُ خطّ اخيها يوسف فاسرعت الى فضّ ختمهِ لترى ما جرى لذاك الشقيق المحبوب الذي كاد ابوهُ يرميهِ باللعنة قبل وفاتهِ . فاذا هو مكتوب من الاسكندريَّة وفيهِ ما حرفهُ :

« بلغني خبر وفاة ابي وهو لم يذكرني عند موتهِ بخير ولكن بركتهُ وشتمهُ سيَّان عندي . . . امَّا الوراثة فسأطالبكِ بها عمَّا قليل عند قضاة الرومان . . . ولكن عليَّ قبل ذلك نذرًا اوفيهِ ان شاء الله وهو ما سبقتُ واعلمتكِ بهِ انكِ لا تحظين زمناً طويلًا بمحبوبك الروماني . . . فستعرفين عمَّا قليل ما في قلبي لك ولهُ من البغض . . . أعلمتُ انَّ هذا الجنديّ قد تنصَّر وانك سبقتِهِ الى هذا الدين . . . فكفاني بذلك وصمةً الى مرامي وتشفّياً من حقدي »

قرأت يهوديت هذه الاسطر فكانت في قلبها بمثابةِ سهمٍ رشقه او حيَّة نفثت فيهِ

بستها. ولمّا كان حبُّها لراسيوس شديدًا لم تشأ ان تطلعهُ على مضمون تلك الرسالة لئلاَّ تكدّر صفاء حياتهِ. بيد انَّ هذا الجرح الاليم كان القاضي على حياتها فاخذت قواها في الانحطاط رويدًا رويدًا وضاق نفسها وعلا الاصفرار وجناتها حتى انَّها لم ترَ بدًّا من ملازمةُ الفراش

فقلق راسيوس واوفد للحال الى لوقيوس الطبيب يستدعيهِ فجاء وفحص جسم يهوديت فعلم انَّها لا تشفى من مرضها. ولمّا خرج من غرفتها وطلب منهُ راسيوس ان يوقفهُ على حقيقة الامر اكتفى بان يقول: « قد حسدك السماء على كنزك »

فادرك راسيوس معنى هذا القول وامتلأ قلبهُ حزنًا لكنَّهُ تجلّد امام يهوديت لئلاَّ يزيد وجعها. امَّا هي فشعرت انَّ ضوء حياتها اوشك ان ينطفئ ولمّا عاد زوجها الى غرفتها قالت لهُ: « ما راي الطبيب ؟ »

— يرى انَّ مرضكِ عرضيٌّ

— لا لا تخدعني يا عزيزي فاني شاعرةٌ بقرب حلول الاجل. على اني لا اخاف الموت بل هو في عيني كبابٍ لعالم آخر حيث الفرح الدائم والخير العميم

فهمَّ راسيوس ان يخفي عنها تأثُّرهُ لكنَّ الدموع غلبتهُ فترامى على عنق يهوديت لا يستطيع ان يفوه بكلمةٍ

فجعلت هي تعزّيهِ وتطيّب قلبهُ قائلة: « ليس على الارض نعيم باقٍ امَّا هناك فالوصال بلا انفصال والتلاقي بلا فراق »

وكان راسيوس لشدَّة محبَّتهِ لزوجتهِ لم يشأ ان يصدّق بموتها القريب فلم يدع وسيلةً الَّا توسَّل بها ولا طبيبًا الَّا استشارهُ. ولكنَّ قضاء الله لا يُردّ فانَّ المرض كان يتناقل على يهوديت يومًا فيومًا وهي لا تزيد الَّا صبرًا جميلًا وشوقًا الى السماء حتى اذا كان احد الأيام اصابتها نوبةٌ كادت تكون القاضية عليها فبقيت حينًا بين الحياة والموت فلمَّا افاقت اشارت الى راسيوس فقالت بصوت متخافت:

« ترى يا صاح انَّ ما قلتهُ لك في قرب وفاتي امرٌ يقين... » فاجهش راسيوس بالبكاء ثم قال: « وكيف تموتين يا عزيزتي وانا ابقى وحدي بين الاكدار والاوجاع »

قالت يهوديت: اعلم يا صاح انَّ فراقنا ليس بطويل وقد اعلمني ربّي انهُ سيجمعنا

عمًا قليل في دار النعيم . . . ولكن اسألك واحدةً فقط قبل وداعك أتعدني بانك لا تردّني خائبةً »

— ولو طلبتِ نفسي لما ضننتُ بها عليكِ

— ارغب اليك ان تجحد دين الاصنام . وتدين بدين المسيح

فسكت راسيوس قليلًا واردفت يهوديت :

« لا تدعني اموت قبل ان تحقق اماني »

قال راسيوس : اني اقسم برأسكِ اني لن اعرف ايمانًا غير ايمانك

— ومتى تفي بوعدك ؟

— في هذا المساء .

فاستبشرت يهوديت وكانَّ نورًا سماويًا جلّل محيّاها فقالت : اذن اموت فرحةً وها انا اذهب الى ربّي لأُعدَّ لك المكان حيث نجتمع قريبًا كما وعدني المسيح

ثم قضت بقيّة ذلك النهار وهي تتكلّم مع زوجها عن الدار السرمديّة التي تنتظر عباد المسيح الذين كفروا بنفوسهم وحملوا الصليب معهُ الى ان قالت : « وان دعاك الربّ الى الجهاد في سبيل ايمانك فلا تأبَ ان تهب لهُ دمك الذي طالما كرمتَ بهِ في الدفاع عن الوطن . . . فانَّ المسيحيّ يرى في الاستشهاد افضل نعمةٍ يتمنّاها »

ثم امرت يهوديت كلّ الخدم بان يزّينوا الدار احسن زينةٍ وينصبوا في القاعة الكبرى مذبحًا يزدهي بالانوار ويتلالا بضياء المشاعل وارسلت من يُقدم بالاسقف كوارتوس لوتبة العماد

فلمّا دخل الشيخ الجليل كان راسيوس جاثيًا يُصلّي عند فراش يهوديت

فانتصبت المريضةُ على فراشها لئلاَّ يفوتها شيء من هذا المشهد المؤثر فلمّا رأت الماء المقدّس يسيل على جبين حبيبها صرخت : « ها قد تمّ » وسقطت على فراشها مغشيًا عليها . فتسارع الكل حولها وظنّوا انّها قد ماتت . فاخذ راسيوس بيدها فبلّها بدموعهِ . واذا بيهوديت فتحت عينيها لآخر مرّة فقالت : « الوداع الوداع ايّها العزيز اني انتظرك عند الله حيث نحيا الى الابد »

ثم التفتت الى الاسقف كانّها تطلب بركتهُ ودخلت في النزاع . فباركها كوارتوس من صميم الفؤاد ثم قال : « اخرجي ايّتها النفس المسيحيّة من هذا العالم واذهبي الى الاب

الذي خلقكِ . . . الى الابن الذي فداك . . . الى الروح القدس الذي قدّسك . . » فسمع الحضور يهوديت تقول : « يسوع . . . مريم . . . هلمَّ معي يا عزيزي راسيوس » ثم شهقت شهقة اخيرة وتطايرت نفسها البارَّة الى جنان الخلد . اما جسدها النحيف فلاح للحضور كانهُ لبس شيئاً من انوار القيامة . وكان الذين يرونهُ محفوفاً بالزهور يعدُّونهُ كاحد الزنابق العطرة التي حولهُ يجاريها نقاوةً وطهراً

من لنا أن نصف بحر الاحزان الذي غاص فيهِ الضابط راسيوس بعد وفاة قرينتهِ . فان هذا المصاب الجلل ضعضع ركنهُ وامرَّ عيشهُ وكانَّ الدنيا اظلمت في عينهِ فلم يعد يجد فيها غير شجىً ومرارةً

وكان اهل بيروت يرونه في صباح كل يوم يخرج الى اكمةً مطلَّة على نهر بيروت وهو خاشع البصر كاسف البال فاذا بلغ اعلاها دخل مدفناً هناك على شبه مغارة كان فيهِ قبر من رخام اودعه جسم يهوديت . فكان يكبُّ على القبر ويقضي ساعات طوالاً وهو يصلّي ويبكي فلا يرجع الى دار الورود الّا المساء . فيخال للذين يرونه في هذه الحالة انهُ فقد رشدهُ لحزنهِ

وكان لاونطيوس صديقهُ بعد الحرب الاورشليميَّة عاد الى مركزهِ في طرابلس فبلغهُ ما اصاب راسيوس من الاكدار بموت قرينتهِ فقام من ساعتهِ واتى بيروت فرثا لحال صديقهِ وبكى معهُ طويلاً وزار قبر يهوديت مراراً وكان لا يدع فرصةً ليطيّب قلبهُ ويخمّد اشجانهُ ويرقّي بآمالهِ الى حيث سبقتهُ زوجتهُ لتعدَّ لهُ مكاناً في السماء . ولم يزل يضمّد جراح قلبهِ حتى اقنعهُ أن يخرج مدَّةً من بيروت لترويح البال فيأتي معهُ الى طرابلس . وكان راسيوس تمنَّع مدَّةً لئلا يفوت عن نظرهِ قبر حليلتهِ الّا انهُ لم يستطع آخراً الّا مطاوعة صديقهِ فخرج معهُ وهو لا يدري انهُ سيلقى حتفه في سفره هذا ويجتمع بيهوديت الى الابد

*

لم ينسَ يوسف وعيدهُ وانما كان واقفاً لراسيوس بالمرصاد . وتيسيراً لبلوغ مآربهِ القبيحة اتى من الاسكندريَّة الى طرابلس ليترصَّد فيها الفرصة لنصب المكايد . وفيها بلغه خبر وفاة اختهِ يهوديت فسُرَّ بذلك سرورهُ بموت احد اعدائهِ لكنَّ هذا لم يشفِ الّا قسماً من بغضهِ فاخذ اولاً يتقرَّب الى حاكم طرابلس وكان هذا اسمه ادريانوس وهو رجل

عريق بالوثنيَّة شديد التعصُّب لعبادة الاصنام فاخذ يصوّر له النصارى كاعداء الدين والدولة معاً فيسعى بهم لديهِ ويقبّح سلوكهم حتى اسعر قلبهُ بغضاً عليهم. فكتب الحاكم الى قسبسيانوس الملك يطلب منهُ الرخصة ليتتبَّع النصارى ويكبح ثورتهم ويردّ كيدهم في نحرهم. فاتاهُ بعد ايَّام الجواب من الملك ان افعل كما تشاء وان اقتضى الامر معاقبة هؤلاء الاشرار بالموت فلا حرج عليك

فسُرَّ يوسف بهذا الجواب الذي وافق وصول راسيوس ولاونطيوس الى طرابلس في ربيع سنة ٧١ للمسيح. وما أُعلم بمجيء الضابطين حتى ذهب الى الحاكم وافادهُ انهما من اعيان النصارى وخوَّفهُ منهما واغراهُ بهما قائلاً: « ان عاش هؤلاء فسلامٌ على الجيش الرومانيّ لأنهما من اصحاب الدسائس وكلاهما يسعى بتنصير الجنود حتى اذا كثر عدد المسيحيين ثُوا الفتن واثاروا الثورات على المملكة. فبدار بدار وأسرع الى استنطاقهما واعرض عليهما ان يقدّما بخوراً لتشمال المريخ اله الحرب ولعزَّة القياصرة فان فعلا كنتَ في أمنٍ من سوء مقاصدهما واماً اذا امتنعا فاعلم ان الخطب عظيم وانَّ الدولة لفي خطر مبين. . . ولعلَّ احدهما وهو راسيوس يلوذ بطيطس ويدَّعي انهُ من اصدقائهِ فلا تُعِرْهُ سمعك »

وكان طيطس بعد الاعياد البهيَّة التي جرت في بيروت انتقل الى اورشليم ليرى بعينهِ انهُ لم يبقَ ثمَّت سبب للخوف ثم ابحر من يافا الى الاسكندريَّة. فبابتعادهِ خلا الجو ليوسف فلم يزل ينحت أثلتهما ويندّد بهما حتى اصاخ اليهِ ادريانوس لاسيَّما بعد ان طمَّعهُ في ثروة راسيوس التي زعم انَّها ملكهُ الخاصّ ووعدهُ بان يقتسمها كلاهما بعد موتهِ

فلمَّا كان اليوم العاشر لوصول الضابطين الى طرابلس وكانا في مساء بعض ايَّام نيسان قد خرجا الى منتزهٍ قريب من المدينة ارسل ادريانوس قائد مئة يأتيهِ بهما عند عودتهما على حجَّة ان لديهِ حاجةً اليهما

فعاد الضابطان عند مغيب الشمس واذا بقائد المئة اوقفهما باسم الحاكم واقتادهما الى مجلس البلد

فما دخلاهُ حتى أُقفلت الابواب فاحسَّ لاونطيوس بوقوع البلاء فقال لصديقهِ: « لا اعلم ما يُراد منَّا ولكني اعرف انَّ الحاكم من ألدّ اعداء النصرانيَّة فان طلب المسيح منك دمك فلا تنسَ ان يهوديت تنتظرك في السماء »

قال راسيوس: يا « حبّذا الموت ان كان يجمعني بتلك النفس الطاهرة. وهي قد اعلمتني بان الموت في سبيل المسيح غنيمةٌ »

فلمّا مثلا امام الحاكم وجداهُ جالساً على سدّةٍ وعلى جانبيهِ مستنطق وكاتب. وكان يوسف بن صموئيل في قربةٍ ليفحمهما اذا انكرا دينهما. فقال الحاكم: « بلغني انكما تدسّان الدسائس وتسعيان بخراب الدولة »

قال لاونطيوس: « انّ شكوى كهذه لغريبةٌ وكلانا راجعٌ من الحرب حيث اهدرنا دماءنا في سبيل الملك »

قال الحاكم: « فان كنت صادقًا يا لاونطيوس هانذا بتمثال المرّيخ وبدمية قسبسيان الملك فقدّم لهما بخورًا »

— اني عبد الاله الواحد المثلّث الأقانيم خالق السماء والارض فاياهُ اعبد ولا ارضى دونهُ الهًا

— حذارِ فان عصيانك يؤدي بك الى الموت الاحمر

— لست اخاف الموت فافعل ما بدا لك

قال ادريانوس: كبلوهُ بالحديد وسوقوهُ الى السجن لعلّهُ يرعوي

ثم صارت النوبة الى راسيوس وكان مثل صديقهِ لاونطيوس حمّسهُ فانساهُ كل احزانهِ ليفكّر بوصاة يهوديت الاخيرة اذ قالت لهُ: « وان أهّلك المسيح لتموت في سبيل ايمانك فيا حبّذا الموت وهو اجزل نعم الله اليك »

فقال ادريانوس للضابط:

وانت ما اسمك؟

— انا مسيحيّ

— اني اسألك عن اسمك. وأعلم حقّ العلم بانك تُدعى راسيوس

— ليس تحت ذكر اسميّ كبير امرٍ ولكني مسيحيّ

فاضطرب ادريانوس وقام مغتاظًا من كرسيّهِ فقال:

اسجد للآلهة او موتًا تموت

— أتظن ان الموت يخيفني وطالما رهنتُ حياتي للموت في ساحة الوغى. فاعلم اني لا اسجد لاصنامك الصمّ البُكم

— والقياصرة ألا تضحي لعزّتهم الضحايا

— أكرم القياصرة كنوّاب الله فلهم خدمتي. امّا نفسي فهي لهُ تعالى فقط ولن اعبد غيرهُ الهًا

قال ادريانوس للحضور: انتم شهود على عصيانهِ. خذوهُ الى السجن وليُقتل كلاهما في غدٍ

فسيق راسيوس الى السجن حيث استقبلهُ لاونطيوس بصوت الفرح وقبّل قيودهُ التي غُلّ بها قائلًا: « قد صدق وعد المسيح ليهوديت فطبْ نفسًا وقرَّ عينًا. غدًا ان شاء الله تنتهي الاوجاع فنموت كريمين ونحظى بالاكليل السرمدي الذي وُعد بهِ من يجاهد الجهاد الصالح في سبيل الله »

ثم احيا تلك الليلة في الصلاة وتهلّلا بالتسابيح وكان الجند الذين وكلت اليهم حراستهما يتعجّبون من فرحهما ويستعظمون شهامة نفسهما وهما سايران الى منقع الدم كما يسير الجياع الى المآدب الفاخرة او كما يمشي الابطال الى النصرة الباهرة

فلمّا كان صباح تلك الليلة عقد ادريانوس مجلسًا ثانيًا وامتثل امامهُ الشهيدان. فالحّ عليهما بجحود الايمان فلم يفعلا وآثر الموت على الخيانة فامر بان يقطع رأسهما. فلمّا هما هذا الحكم فرحًا وقبّل لاونطيوس رفيقهُ وهو يقول: « اذكر يهوديت فلا يمرّ عليك هذا النهار حتى تحظى بمشاهدتها »

ثم قادتهما شرذمة من الجند الى خارج المدينة الى غابة من الزيتون. فكنت تراهما وهما مسرعان اشبه بمن يركض الى افراح العرس وعلى جبهتهما تلوح امائر السرور والبهجة. فلمّا وصلا الى المكان جثوا قليلًا فصليًا صلاةً احرّ من النار ثم عانق الرفيق رفيقهُ مشيرين الى السماء وجعل راسيوس على راسهِ منديلًا ليهوديت كان على صدرهِ لا يفارقهُ ليلًا مع نهار

فبعد هنيهة برق السيف على راسهما فقطع حبل حياتهما ليحظيهما بمجد لا تُقاس بهِ آلام هذا الدهر

ولمّا علم نصارى طرابلس بخبر الشهيدين اتوا ليلًا ونقلوا جثتهما باكرام فدفنوا لاونطيوس في بيت احد اعيانهم اقيم بعدئذٍ مكانهُ معبدٌ على اسمهِ. امّا جسد راسيوس رُوفوس فانهُ نُقل الى بيروت وجُعل في المغارة التي قُبرت فيها يهوديت فاجتمع

جسدهما في تربة واحدة كما اجتمع روحهما في منزل الابرار

على انّ ادريانوس خاف بعد موتهما أن يبلغ الخبر الى طيطس في الاسكندريّة ويصيبهُ من جرّاء ذلك ضررٌ ما فكتب من ساعتهِ الى ڤسپسيانوس يخبرهُ بمكايد الضابطين وعصيانهما وعقابهما . فاجابهُ مستحسناً فعلهُ . اما طيطس فبلغه الواقع واستشاط لهُ غيظاً لكنَّهُ احفظهُ في قلبهِ . ولمَّا جلس بعد سنة على سُدّة الملك بعد ابيهِ ارسل الى ادريانوس ونفاهُ الى بلاد الخزر . اما يوسف فاستصفى كل امواله التي ورثها من اختهِ يهوديت فكنتَ تراهُ الى موتهِ لئيماً ممقوتاً وعلى جبينهِ سمة لعنة « يمين العليّ » (تتمّت)

رسم خرائط لبنان

للاب هنري لامنس اليسوعي (تتمّة)

ولمَّا ظهرت هذه الخارطة التي رسمها ضُبّاط البعثة الفرنسويّة استحسنها ڤان دي فلد لكنَّهُ ودَّ لو ألحقها اصحابها بشرحٍ يرشد القرّاء الى بيان طرائقها والادوات المستعملة لرسمها ومراكز اقيسة مثلّثاتها الى غير ذلك من الفوائد اللازمة لضبط الرسوم وتحقيق صحّتها . وقد انتقد غيرهُ على هذه الخارطة فاخذوا عليها بعض المآخذ منها انَّ اقيسة السواحل لا توافق الخرائط البحريّة التي كان الانكليز يقومون برسمها آنئذٍ تحت نظارة الكومندان مَنسِل . فمن اين يا تُرى هذا الاختلاف وايّ الفريقين هو المُحِقّ او المحقوق ؟ فانَّ الرسّام ريشرد كيپرت بن هنري كيپرت الشهير اعلن انَّ اقيسة الضباط الانكليز لا تخلو من الخلل (١ وكذلك نرى كتبة الانكليز قد اثنوا اطيب الثناء على الخارطة الفرنسويّة للبنان (٢ التي يرجّح كون اصحابها استفادوا من اعمال الضابط الفرنسويّ ديولين (Desmolins) في اقيستهِ الساحليّة . وزد على ذلك انَّ العلاّمة النمسويّ دينر (Diener) من علماء الجيولوجيّة قد استصوب عمل الخارطة نفسها وممَّن لم يستحسنها السيّدة ايزابل برتون امرأة السائح الانكليزي الشهير (٣ بيد

١) راجع ملاحظاتهِ في ملحق رحلة البارون فون اوپنهيم الى خليج العجم ج ٢ ص ٣٩٦ و ٤٠٥ ٢) راجع المجلّة PEF, 1865, 75

٣) راجع الكتاب Unexplored Syria 1, 95